Manifestations of the intellectual's personality in the Syrian rural novel

Dr. Eid Mahmoud*
Dr. Firouz Abbas**
Rita Malik Ali***

(Received 5 / 9 / 2024. Accepted 5 / 12 / 2024)

□ ABSTRACT □

This research attempts to approach the manifestations of the intellectual's personality in the Syrian Arab novel in the second half of the twentieth century, based on the importance of the personality element in the architecture of the novel as a literary genre, and the role of this element in providing the novel with one of the most important components of the artistic structure, and the aesthetics of this structure; The study of the character of the intellectual in the Syrian Arab novel has intellectual and artistic dimensions, due to the possibility of a connection between the novel as a literary art and its social and cultural references.

The research focused on studying the educated character in the Syrian novel that deals with the Syrian Arab countryside by a group of Syrian novelists. Then the research tested the effectiveness of the educated character in the rural novel, through three basic models, which are: (the traditional intellectual, the revolutionary intellectual, and the non-affiliated intellectual), with the aim of Forming a general view of the character of the intellectual in the Syrian Arab novel, to extract its general vision, and study its characters, in order to reveal its aesthetics, and shed light on its role and the extent of its ability to transfer the Syrian Arab novel from the shades of romanticism to realism.

Keywords: personality, intellectual, countryside, novel.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Professor Doctor - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Human Sciences - Tishreen University - Lattakia - Syria.**
****Assistant Doctor - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Human Sciences - Tishreen University - Lattakia – Syria.**
***** PhD student (Literary Studies) - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Human Sciences - Tishreen University - Lattakia – Syria.**

الشَّخصيّة المُثقّفة في الرّواية الرّيفيّة السُّوريّة

د. عيد محمود*
د. فيروز عباس**
ريتا مالك علي***

(تاريخ الإيداع 5 / 9 / 2024. قبل للنشر في 5 / 12 / 2024)

□ ملخّص □

يحاول هذا البحث مقاربة تجلّيات شخصيّة المثقّف في الرّواية العربيّة السَوريَة في النَصف الثَّاني من القرن العشرين، انطلاقاً من أهمَيَة عنصر الشَخصيّة في معماريّة الرَواية كجنسٍ أدبيّ، ودورِ هذا العنصر في رفد الرواية بأحدِ أهمِّ مقوّمات البناء الفنّيَ، وجماليّات هذا البناء؛ إذ تعدّ دراسة شخصيَة المثقّف في الرَواية العربيّة السوريّة ذات أبعاد فكريّة وفنَيّة، لإمكانيّة المتاخمة بينَ الرواية كفنٍّ أدبيّ، ومرجعيّاته الاجتماعيّة والثّقافيّة.

وقد اعتنى البحث بدراسة الشَخصيَة المثقَفة في الرَواية السَوريّة التي تُعنى بالرَيف العربيّ السوريّ لدى مجموعةٍ منَ الرَوائيّين السَوريّين، ثمّ اختبرَ البحث فاعليَة الشَخصيَة المثقَفة في الرَواية الرَيفيّة، من خلالِ نماذجَ ثلاثة أساسيَة، وهيَ: (المثقّف التَراثيَ، المثقّف الثَوريَ، المثقّف اللامنتمي)، بهدف تشكيل مشهدٍ عامّ لشخصيّة المثقّف في الرّواية العربيّة السّوريّة، لاستخلاص رؤيتها العامّة، ودراسة شخصيّاتها، بغية كشفِ جماليّاتها، والإضاءة على دورها ومدى استطاعتها نقل الرّواية العربيّة السّوريّة من ظلالِ الرّومانسيّة إلى الواقعيّة.

الكلمات المفتاحيّة: الشّخصيّة، المثقّف، الرّيف، الرّواية.

حقوق النشر :مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **أستاذ- قسم اللغة العربية – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سورية.**
** **مدرس – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.**
*** **طالبة دكتوراه- قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.**

مقدّمة:

تعدّ الشّخصيّة من أبرز المكوّنات التي يقوم عليها العمل السرديّ وأهمّها، فمن خلاله يستطيع الرّوائيّ تصوير المجتمع الإنسانيّ الذي ينهض ويتأسّس على الإنسان (الشّخص) الذي هوَ بمكانة العمود الفِقريّ فيه، فيعتني بتكوينها العامّ، وبمختلف أبعادها الاجتماعيّة والفيزيولوجيّة والنفسيّة.

وقد حظيَ مفهوم المثقّف بعنايةِ الباحثين والمُفكّرين، إذ اهتمّ مبدعو الرّواية السّوريّة، كجنسٍ أدبيّ، بتقديمِ نماذجَ متعدّدة للشّخصيّة المثقّفة، واعتنَوا بشخصيّة المثقّف المنتمي إلى الطّبقات الفقيرة في المجتمع، انطلاقاً من أنّ الرّواية عملٌ فنّيّ، يُحاكي الواقع الخارجيّ ويستوعبُهُ فنّيّاً، وقد حظيت هذه الشّخصيّة بحضورٍ كبير في الرّواية السّوريّة في الفترة المدروسة، والذي فاقَ حضورَ الشّخصيّة المثقّفة المنتمية إلى الطّبقتين المتوسّطة أو الغنيّة.

أهمّيّة البحث وأهدافه:

وانطلاقاً من أهميّة الشّخصيّة في البناء الفنّيّ للرّواية، سيحاول هذا البحث مقاربة نماذج الشّخصيّة المثقّفة في الرّوايات السّوريّة التي تناولت الرّيف السّوريّ في النّصف الثّاني من القرن العشرين، والهدف من الحديث عن هذا النّموذج من الشخصيّات دراسة الشّخصيّة الروائيّة بطريقة جديدة، والكشف عن دور هذهِ الشّخصيّة في رفد الرّواية العربيّة السّوريّة بمقوّمات جماليّة ودلاليّة متنوّعة، منطلقاً في دراسة الشّخصيّة المثقّفة من مجتمع الرّواية، ويعرض إيديولوجيا الشّخصيّات المثقّفة، راصداً كيفيّة انعكاس ذلك على النّصوص الروائيّة.

وقد جاء اختيارنا هذهِ المادّة الرّوائيّة التي تتناول الرّيف، وعلى وجه الخصوص في النّصف الثّاني من القرن العشرين كون النّتاج الروائيّ فيها يمثّل حقبة ومرحلة مهمّة من تاريخ نضوج الرّواية العربيّة السّوريّة، إذ بدأت تعي نفسها، وتمتلك صوتها الخاصّ بها، مُشهرةً أدواتها الفنيّة بجرأة أكبر من السّابق في تناول المجتمع السّوريّ ومشكلاته، من خلال العنصر الفنيّ البالغ الأهميّة، إذ إنَّ الرّيف السّوريّ " حظيَ بأكبر عدد من الرّوايات في إطار المنهج الواقعي وعنايتها بالرّيف، يقترب عددها من عشرينَ رواية جابت مساحة الأرض السّوريّة"[1].

منهج البحث:

اعتمدَ البحث المنهج الوصفيّ الّذي يساعد على الغوص في عمق النّصوص الرّوائيّة، واكتناه عناصرها، والبحث في بنيتها ابتداءً من العلاقات المؤسّسة لتلك البنى، وصولاً إلى فاعليّتها ودلالاتها عبرَ قراءةٍ متأنّية تعتمد التّحليل والتّفسير والتّأويل.

شخصيّة المثقّف في الدراسات النقديّة الغربيّة:

شغلَ الحديث عن الثّقافة والمثقف حيّزاً واسعاً من الدّراسات النقديّة في الغرب؛ فتناولت تلك الدّراسات الإشكاليّة المُتعلّقة بتحديد مفهوم الثّقافة، ومن هو المُثقّف، وما دوره في المجتمع، مجمعةً على أنَّ النّسق السّرديّ هو من يبرز شخصيّة المثقّف وموقعه ووظيفته ورؤيته.

[1])- **عبد الله، د. محمد حسن، *الرّيف في الرّواية العربيّة*، مجلّة المعرفة، العدد /143/، الكويت، 1993م، ص60.**

وقد اختلف الباحثون الغربيّون حول تعريف المثقّف، ومستوى الثّقافة الذي يجب على الإنسان أن يحوزه حتى يُطلَق عليه صفة المثقّف، وأثارت هذه التّسمية تساؤلاً في الشّارع الغربيّ، وذلكَ في أواخر القرن التّاسع عشر، حين صدرت إحدى الجرائد في الغرب، وهيَ "الأورور" الفرنسيّة بعنوان "إعلان المثقّفين"، فقد "برزت ردود فعل كثيرة إزاء التّعريف الّذي قصرَ صفة مثقّف على النّخبة المميّزة من الكتّاب والعلماء وأساتذة الجامعات"[2].

إنّ مصطلح (مثقف) كانَ مثارَ جدالٍ كبير بين الدّارسين، فقد اختلفت وجهات النظر بينهم حول مدلول هذا المصطلح، وجاءَ من بين التّعريفات المتداولة في هذا المصطلح ما ذهب إليه المفكّر الإيطالي (أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci)، المعروف بالتوجُّه الماركسي، في قوله إنَّ "المثقّفين الحقيقيّين يشكّلون طبقة العلماء أو المتعلّمين البالغي النُّدرة حقّا، لأنّ ما ينادون به هو المعايير الخالدة للحقّ والعدل، وهي الّتي لا تنتمي إلى هذه الدّنيا "[3].

وقد عرّفَ الفيلسوف الفرنسيّ (جان بول سارتر Jean Paul Sartre) المثّقف بأنّه "ذلك الإنسان الّذي يدرك ويعي التّعارض القائم فيه وفي المجتمع بين البحث عن الحقيقة العمليّة.. وبين الإيديولوجيا السّائدة "[4].

وفي رأي النقّاد الغربيّين إنّ المثقّف هو كلّ إنسان منتج للفعل الثقافيّ والأخلاقيّ والتربويّ، وهو ما أكّدهُ (سان ريمون Saint Simon) الذي يعدّ أوّل من استخدم مصطلح (مثقفين Intellectuels)، قاصداً به "تلك الفئة الجديدة من فئات النّخبة الثقافيّة التي تعتمد في كسبها على الإنتاج الفكريّ والنظريّ"[5].

وبالعودة إلى لفظ (ثقافة culture) في الغرب، وفي الفرنسيّة على وجه التحديد سنجده "يشير إلى حقلين دلاليّين متمايزين هما: حقل الفلاحة والإنتاج الفلّاحيّ وثمرات ذلك الإنتاج، فهي مشتقّة من أصل لاتيني قديم هو (cultura) التي تعني فلاحة الأرض من جهة، وحقل العبادة الدينيّة (culte) وطقوسها وقواعدها من جهة أخرى"[6].

وبالتّالي تباينت وجهات نظر الغربيّين حول هذا المصطلح، لتجتمع على أنّ المثقف هو الشّخص الممتلك وعياً كافياً ليقفَ مواقف فعّالة في المجتمع، في ظلّ مختلف الأيديولوجيّات التي تتحكّم بالمجتمعات الإنسانيّة، والبحث عن الحقائق الّتي من شأنها النّضال والفاعليّة في القضايا السّامية التي تشهدها تلك المجتمعات.

شخصيّة المثقّف في الدّراسات النقديّة العربيّة:

نالت الرّواية أهميّة كبيرة انطلاقاً من دورِها في معالجة كثيرٍ من القضايا الاجتماعيّة والمشكلات الفكريّة، إذ شغلت العناصر السّرديّة المختلفة كالزّمان والمكان والشّخصيّات والحدث واللغة مساحةً واسعة من التّحليل والنّقد في معالجتها، ونالَ عنصر الشّخصيّة عنايةً بالغةً، لأنّها تشكّل روح النّصّ وحيويّته، فضلاً عن تداخُلِها مع بقيّة العناصر السّرديّة، فالشّخصيّة الرّوائيّة ترتبط بأهميّة الفنّ الروائيّ، إذ يستحيل وجود رواية بلا شخصيّات، كما أنَّ الأحداث لا بدَّ لها من

---

[2] – وتار. محمد رياض، *شخصية المثقف في الرواية العربية السورية*، (د،ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية ، 2000م، ص 12.

– ينظر: زهران. جمالي علي، *تأثير الأوضاع المجتمعية على دور المثقف العربي*، مجلة الوحدة، العدد /40/، 1988م، ص 34.

[3] – سعيد. إدوارد، *المثقف والسلطة*، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص 35.

[4] – سارتر. جان بول، *دفاع عن المثقفين*، ترجمة: جورج طرابيشي، الطبعة الأولى، منشورات دار الآداب، بيروت، 1973م، ص 33.

[5] – حيمر. عبد السلام، *في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين – من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي، ومن منطق العقل إلى منطق الجسد (أو التطبع)*، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ، لبنان، 2009م، ص 112.

[6] – المرجع نفسه، ص 19.

شخصيّات تقومُ بها، والصّراع الدراميّ لا يُمكن أنْ ينشأ لولا الشّخصيّات التي تعبّر عن أفكارها ومواقفها السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة، وغير ذلك من القضايا التي تخصّ الحياة الإنسانيّة.

وقد أجمعَ الباحثون على أنّ بدايات ظهور المثقّف العربيّ الحديث ترجع إلى الفترة التي حدث فيها اتّصال الشّرق بالغرب"[7]، وبعد أن وفدَ مصطلح (المثقّف) إلى التّنظير والكتابة في مدوّنات السّرد العربيّ برز بعض من الكتّاب الّذين أسّسوا مشروعاً نقديّاً وثقافيّاً، متناولين قضيّة الثّقافة والمثقّف، كالمفكّر "إدوارد سعيد" في كتاب (صورة المثقّف)، والدكتور "علي حرب" في كتابه (أوهام النّخبة أو نقد المثقّف)، والدكتور "محمد عابد الجابري" في كتابه (المثقّفون في الحضارة العربيّة) وسِواهُم.

وقد أجمعَ عددٌ غير قليل من المُفكّرين العرب على أنّ مفهوم المثقّف لا ينحصر في أصحاب الاختصاصات الجامعيّة، بل المثقّف هو من يمتلك مشروعاً فكريّاً وحضاريّاً، وهو المتميّز في مجتمعه بالأفكار والتّصوّرات الذهنيّة لديه، غير القابل ببساطة للانزلاق والتّبعيّة العمياء خلف السّلطة والشّعارات والأحزاب على اختلافها، هو شخصيّة مستقلّة، لها رؤيتها الخاصّة وأدواتها الفريدة التي تصل بها ومن خلالها إلى الهدف البعيد.

كما اهتمّ النقّاد بمصطلح (المثقف) في أعمالهم النقديّة، فظهرت دراسات كثيرة، نذكر منها دراسة الدكتور عبد السّلام محمد الشّاذلي (شخصيّة المثقّف في الرّواية العربيّة الحديثة 1952م)، التي تناولت معالم تطوُّر شخصيّة المُثقَّف في الرّواية العربيّة الحديثة على ضوء استقراءٍ تاريخيّ وتحليلٍ نقديّ منهجيّ معاً، ودراسة الدكتور "محمّد رياض وتّار" في كتابه (شخصيّة المثقّف في الرّواية العربيّة السوريّة) الصّادر عن اتّحاد الكتّاب بدمشق 1999م، وتعدّان من بواكير الدّراسات التي تناولته بشكلٍ واضح وشموليّ.

ويرى النّاقد "جابر عصفور" أنّ صورة المثقف ارتبطت بالإنتاج الروائيّ منذ مرحلة الرّواية المترجمة، "فظهور البطل المثقّف في الرّواية العربيّة من حيث هو موضوع لها، نتيجة مترتّبة على نشأة هذه الرّواية في استجابتها إلى بحث الوعي المدنيّ عن وسيطٍ إبداعيّ يصوغ حضوره الواعد في المدينة وبالمدينة، وأنّ تحوّل هذا البطل إلى عنصرٍ تكوينيّ في الرّواية، أو الشّخصيّة الأساسيّة بين شخصيّاتها ،لازمة من لوازم النّشأة الّتي سرعان ما تحوّلت إلى خاصّيّة متأصّلة، كما أصبحت سِمة من سمات مُبدعها الّذي بحث عن تمثيلاته أو نظائره قبل أن يبحث عن نقائضه أو أضداده"[8].

وقد حضرت صورة المثقّف في الأعمال السّرديّة والرّوائيّة العربيّة تبعاً لقناعات الروائي وخياراته وخبراته وتمثّلاته وأغراضه، مرتبطةً من ظهورها بقضيّة المواجهة مع الآخر، فقد "صاحبَ ميلاد شخصيّة المثقّف في هذه الأثواب المهلهلة من أشكال الفنّ الروائيّ كما عرفها تاريخ أدبنا الحديث، كما عالجت الرّواية العربيّة منذ نشأتها مسألة المثقّف من زوايا متعدّدة، وفقَ اختلاف توجّهات الرّوائي وموقعه من السّلطة ونظرته للمثقّف عموماً، وذلكَ منذ الرّوايات التأسيسيّة في المشرق والمغرب العربيّين، على غرار رواية (زينب) لحسين هيكل و(أديب) لطه حسين، و(موسم الهجرة إلى الشّمال) للطّيّب صالح، و(الطّالب المنكوب) لعبد المجيد الشّافعي، و(ريح الجنوب) لعبد الحميد بن هدوقة وغيرها، فقد "صاحب ميلاد شخصيّة المثقّف في هذه الأثواب المهلهلة من أشكال الفنّ الروائيّ كما عرفها تاريخ أدبنا الحديث[9]،

---

[7]) – وتار. **محمد رياض، *شخصية المثقف في الرواية العربية السورية*، ص 17.**

– ينظر: شرابي. هشام، *المثقفون العرب والغرب*، (د،ط)، دار النهار، بيروت، لبنان، 1971م، ص 16.

[8]) – **عصفور. جابر، *مواجهة الإرهاب (قراءات في الأدب العربي المعاصر)*، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2003م، ص56.**

[9]) – **الشاذلي. عبد السلام محمد، *شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة*، الطبعة الأولى، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1985م، ص 15.**

وظهرت في سورية أقلام روائيّة عدّة تتناول شخصيّة المثقّف، مثل عبد السّلام العجيلي، وجان ألكسان، وأديب النّحوي وغيرهم.

صور المثقّف في الرّواية الرّيفيّة:

قد لا تخلو رواية عربيّة سوريّة بدءاً من النّصف الثّاني من القرن العشرين من منحىً أيديولوجي انعكسَ فنّياً في مشهد الشّخصيّة المثقّفة التي يمكن حصرها في نماذج منها: المثقّف المنتمي التّراثيّ، والمثقّف الثّوريّ، والمثقّف بالخبرة، والمثقّف اللامنتمي، فروايات "جيل الخمسينات والستينات أخذت في معظمها تدور حول الظّلم الاجتماعيّ وتسلّط الإقطاع، كما عكست منازع التمرّد والثّورة، وبشّرت بقُرب الخلاص"[10].

1- المثقّف التراثيّ:

يكشف المنحى والاتّجاه الفكريّ الأيديولوجيّ موقف الشّخصيّات المثقّفة من التّراث، ويتحدّد فعله الاجتماعيّ في نمطين اثنين، هما:

1- موقف المتستّر بالتّراث، الّذي يسعى أصحابه إلى اتّخاذ مواقف خاصّة بهم، تهدف إلى الحفاظ على مصالحهم الخاصّة باتّخاذ الدّين وسيلة سلبيّة لتحقيق ما يصبونَ إليه.

2- موقف المثقّف المُحافظ المتمسّك بالتّراث، ما يُملي عليه الانغلاق على الماضي، وعدم تقبّل الانفتاح على الجديد.

- المثقّف المتستّر بالتّراث:

زخرت رواية الرّيف بشخصيّة رجل الدّين السّلبيّة على وجه التحديد، خلافاً لما يجب أن تكون عليه في الواقع، مُسخّرةً الدّين لا لخدمة النّاس والوقوف إلى جانبهم في مواجهة مصاعب الحياة، ولا في مواجهة الإقطاع، بل خدمةً لمصالحها في إبقاء النّاس غارقينَ في جهلهم، بهدفِ السيطرة على عقولهم وأفعالهم وأفكارهم، وإبقائهم تابعين لها.

فالشّيخ "أحمد العيسى" أحد شخوص رواية "متى يعود المطر" للرّوائي السّوريّ "أديب النّحوي"، والذي يصرّ على غرس أفكار دينيّة معيّنة في أذهان أهل قرية "التلّ الأسود" البسطاء الذين يلجؤون إليه في السّرّاء والضّرّاء، فهوَ الصّديق المقرّب للآغا "رضوان بك الغريب" الذي كان السّبب في جلبهِ إلى القرية وتنصيبه إماماً على النّاس فيها وشيخاً لهم ومرجعيّة في كلّ شؤونه، فعمدَت هذه الشخصيّة المتستّرة بالدّين وعباءته إلى التّأكيد على فكرةٍ مفادها أنّ انقطاع المطر عن القرية مدّة عامين متواليين هو غضب من الله والسّماء عليهم، لأنّهم قاموا باسترجاع أراضيهم من الإقطاعي "رضوان بك الغريب"، الذي أتى هو الآخر غريباً إلى القرية، وقامَ بسلبهم إيّاها، فتمكّنوا بعدَ قيام ثورة الإصلاح الزّراعيّ التي قامت بتوزيع الأراضي على الفلّاحين من استرجاع تلك الأراضي منه.

وكانَ النّاس في القرية يلتفّونَ متحدّثينَ بقلق على مستقبلِ مزروعاتهم وأراضيهم، "أمّا الشّيخ أحمد العيسى فكان يتمتم أوّل الأمر ببضع كلمات غير مفهومة فيسكت الجميع، إلى أن يرتفع صوته زاخراً بالغضب والنّقمة:

- الأرض ملك آبائه وأجداده منذ أيّام العثمانيّين، لقد أعطاهم إيّاها السّلطان، فكيف يرى الله هذه الحكومة الجديدة تأخذها منه، ويرسل إليكم المطر؟ كيف !!"[11].

---

[10])- الدقّاق، د. عمر، *فنون الأدب المعاصر في سورية*، (دط)، دار الشّرق العربي، بيروت، شارع سورية، (د،ت)، ص171.

[11]) – النحوي. أديب، *متى يعود المطر، الأعمال الكاملة (الروايات)*، إعداد وتحرير وتقديم، د. نضال الصالح، المجلّد الثاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2003م، ص 37.

كما فعل أيضاً حينَ حاولَ منع إكمال تعليم الفتى "إبراهيم العُمر" حين بلغَ المرحلة الجامعيّة، متذرّعاً بحججٍ دينيّة واهية للسّيطرة على عقول فلّاحي قرية "التلّ الأسود" ومنعهم من إكمال تعليم أبنائهم ممّن لديهم فكرٌ منفتح قد يشكّل خطراً على الإقطاع ومصالحه:

"ما زالَ عمر النّعسان وجميع أبناء عمّه يتذكّرون ثورة الشّيخ أحمد على ما فعلوه عندما راحوا يجمعون الليرات القليلة الباقية من موردهم الضّئيل من أجلِ إرسالِ إبراهيم إلى المدرسة في حلب.. كيف اتّهمهم بأنّهم كفّار زنادقة، لأنّهم يُرسلون إبراهيم إلى مدارس حلب التي لا تصلح إلّا لمن لا دينَ لهم، وكيفَ خافَ الجميع وكادوا يتراجعون، لولا أنّهم أفاقوا في اليوم التّالي فوجدوا الأستاذ حسن السّعيد وقد مضى بإبراهيم منذ أوّل الفجر قبل أن يستيقظ من سكّان القرية أحد.."[12].

لقد كشفت هذه الرّواية عن الوجه الحقيقيّ لهذا النموذج، وانحيازه إلى الطّبقة المستغلّة المتسلّطة ضدّ الفلّاحين، ما تكشّفَ عن وجودِ ذلك النّمط الانتهازيّ المتستّر بالتّراث والدّين، بغيةَ تحقيق مصالحه ومصالح تلكَ الطّبقة المتسلّطة الّتي تدعمه، من خلال تضليل النّاس البسطاء، مستخدماً التّراث والدّين أداةً وغطاءً يخفي وراءهُ تلك الرغبة الخفيّة العارمة في السّيطرة على النّاس وتحقيق ما يريد.

– المثقّف المتمسّك بالتّراث:

على الرّغم من وجود شخصيّاتٍ متستّرة بالتّراث لتحقيق مآرب شخصيّة دينيّة واجتماعيّة مُمثّلة برجال الدّين، وبالإقطاعيّ وأعوانه، إلّا أنّهُ لا بدّ من وجودِ شخصيّاتٍ مضادّة يتملّكها الوعي بالفطرة، وحبّ الأرض، ومعرفة حقوقها على بساطتها وطيبتها، فكانَت تتكشّف لها ما تحيكهُ الأولى لها ولأقرانها مكراً وشرّاً بهم، من دونِ أن تستطيعَ الخروجَ من عباءة التّراث والعادات والتّقاليد التي تربّت عليها:

"وتذكّرَ عُمر النعسان بقلقٍ وحزن كيفَ كانَ هذا الظّالم رضوان بك يستغلّ انقطاع المطر في بداية هذا الموسم الثّالث ليشيع أنّ الله غاضب على الحكومة الّتي أخذت له أراضيه من أجل إعطائها للفلّاحين. كيفَ كانَ يصيح كلّما التقى بالفلّاحين في القرية ولمسَ قلقهم لانقطاعِ المطر.

– لماذا تريدونَ أن يرسل الله إليكم المطر وأنتم تسلبونني أرضي.. إنّ الله يعاقبكم لأنّكم قبلتم بأخذِ أملاكي، فاذهبوا إلى الحكومة التي تعطيكم الأرض واطلبوا منها أن تُنزل إليكم المطر.

وكان الفلّاحون عند سماعهم كلماته ينظرون إلى بعضهم خائفين واجمين، وما إن يمضي عنهم حتى يُسرعوا إلى مضيفة المختار ليجتمعوا هناك مع معلّم المدرسة الأستاذ حسن السّعيد وإمام المسجد أحمد العيسى متسائلين بوجَل:

– هل صحيح أنّ الله غير راضٍ عن أخذ الأرض منه، ولذلك قطع عنّا المطر؟

لم يستطع "عمر النّعسان" أحد أبطال رواية "متى يعود المطر"، بالرّغم من حكمته وذكائه، أن يتخلّصَ ممّا كانَ يجول في خاطره من أسبابٍ لانقطاع المطر عامين متواليين عن قريته "التلّ الأسود" الواقعة في الشّمال السوريّ. "كانَ المعروف عن عمر النّعسان، منذ شبابه، أنّه أذكى فلّاحي قرية التلّ الأسود، وأكثرهم رجولة، واعتداداً بنفسه. كانَ فارس الحيّ الشّجاع رغم بؤسه، ومعلّم الفلّاحين الذّكي المُدرك، رغم أنّه أمّيّ لا يعرف القراءة والكتابة. لقد منحه الله من حيث لا يدري أحد، تلك المقدرة العجيبة الّتي تظهر في بعض الرّجال، وتجعلهم يتقدّمون الآخرين إلى اكتشاف المجاهل، وارتياد المصاعب. كانت شخصيّته القوية شيئاً نادر المثال بين الفلّاحين في التلّ الأسود، لذلك كان هو الّذي واجه

[12]) – *المصدر نفسه*، ص 46 – 47.

جميع مشكلاتهم بأفضل ما يمكن من الحلول..، كانَ انقطاع المطر.. هوَ الصّعوبة الوحيدة الكبرى في حياته التي لا يستطيع أن يتغلّب عليها.. لوحده.. الّتي يرجع أمامها مُعطّل القوى، فيصبح مثل سائر أبناء عمّه من سكّان التلّ الأسود، فلّاحاً مشدوداً إلى سطح الأرض.. بأنشوطة الجهل والوهم والضّعف"[13].

ولكن، بالرّغم من كلّ ما عُرف عنه من حكمة وعقل راجح، إلّا أنّهُ لم يستطع أن يخرج من حيرته وبؤسه فيما يخصّ موضوع انقطاع المطر الغريب، لم تسعفه مداركه ولا رجاحة عقله في أن يصل لقناعةٍ معيّنة، أو نتيجة تشعره بالارتياح. لقد ظلّت شخصيّة "عمر النّعسان" حبيسة ما نشأت عليه في الرّيف المحافظ، إنَّ أمراً كانقطاع المطر لا بدّ أنّ وراءَه ذنبٌ كبير قد اقتُرِف بحقّ السّماء، أو تقصيرٌ معيّنٌ بأداء الواجبات الدّينيّة أو الإنسانيّة:

"نعم.. إنّنا نقيس رضى الله عن أعمالنا كلّ السّنة بنزولِ المطر عندنا في أوانه، حتّى إذا ما نزل، انهمكنا عادةً في العناية بالزّرع، ثمّ يأتي الصّيف ويشغلنا الحصاد، فلا نتذكّر غالباً، الأعمال الصّالحة الكثيرة التي لا بدّ وأنّنا قمنا بها طيلة العام السّابق. أمّا إذا انقطع المطر، وعطشت الأرض، وغطّاها الصّقيع واحترق العشب وماتت الغنم، فلا بدّ لنا من أن نفهم، بأنّنا لم نكن في ذلك العام صالحين كما يريد الله، حتى نستحقّ رحمته..، ويجب على كلٍّ منّا عند ذلك، أن يُصلح من أمره، ما أفسدته أيّام السّنة السّابقة، فيراجع نفسه، فيما يكون قد ارتكبه في ذلك العام من أفعالٍ سيّئة"[14].

وبالرّغمِ من استيقاظ الوعي الّذي ساد الرّواية في نهايتها، وقيام الإصلاح الزراعيّ بحفر آبار المياه للفلّاحين كحلٍّ بديل لانقطاع المطر، الأمر الّذي مهّدت له الرّواية منذ بدايتها، إلّا أنّ هذه الشّخصيّة لم تستطعِ التّحرّر من عباءة أفكارها الموروثة دينيّاً، وظلّت في نهاية العمل الروائيّ على ما كانت عليه في بدايته، على الرّغم من فرحها الكبير بالتخلّص من بقايا الإقطاع، وتوزيع الأراضي على الفلّاحين، ما جعلها ثابتة على تفكيرها حتّى النّهاية من ثقة بوجود غضبٍ إلهيّ قد تسبّب بحبسِ المطر عن الرّيف:

"كانَ عمر النّعسان مع بقية الشّيوخ المسنّين ما زالوا ينتظرون عودة المطر، غير مؤمنين بما يجري تحت أبصارهم من مياه الآبار المحفورة في كلّ مكان. لم تحلّ لهم مياه الآبار هذه عقدة المطر أبداً.."[15].

لقد قدّمت الرّواية السّوريّة نموذج المثقّف المحافظ المتمسّك بالتّراث، هذا النّموذج الذي تميّز بالانغلاق على أفكاره وموروثه الماضي، وعدم القدرة على قراءة الحاضر والحكم عليه إلّا من خلال الأفكار الموروثة التي شكّلت لديه غلافاً فكريّاً محدّداً، وحاجزاً يمنعه من استيعاب الحاضر وفق المعطيات الجديدة.

2- المثقّف الثّوري:

زخرت الرّواية السّوريّة الّتي تناولت الرّيف بنموذج المثقّف الثّوري ابن البيئة الرّيفيّة، السّاعي إلى تغيير الواقع المَعيش في الرّيف، والأخذ بيده إلى مرحلة جديدة ومنيرة، حاملاً تطلّعاتٍ كبيرة، بهدف تحقيق التغيير الجذريّ المنشود في بنية المجتمع الريفيّ، وعلى وجه التّحديد على المستوى الاجتماعيّ.

ومن هنا ألقت الرّواية الرّيفيّة الضّوء على هذه الشّخصيّة؛ آمالها وتطلّعاتها، إخفاقاتها ونجاحاتها، محاولاتها المتنوّرة في سبيل الخلاص، حتّى نهوضها مراراً، وتحقيق الهدف في نهاية المطاف.

---

[13] – النحوي. أديب، *متى يعود المطر*، ص 26 – 27.

[14] – النحوي. أديب، *متى يعود المطر*، ص 22.

[15] – *المصدر نفسه*، ص 83.

لقد صوّرت رواية "متى يعود المطر" للرّوائيّ السّوريّ "أديب النّحوي" مشاكل الفلّاح السّوريّ والأرض في ضوء قرارات الإصلاح الزراعي، فظهرت شخصيّة الأستاذ "حسن السّعيد" التي جسّدت الموقف الثّوري المتنوّر المتعلّم الّذي كانَ البذرة الثّوريّة في بيئةٍ ريفيّة متطلّعة للخلاص والتحرّر، فكانَ العارف بخطورة الإقطاع ومَن وراءهُ على أهالي القرية، وكاشفاً نوايا الشّيخ "أحمد العيسى" الذي يمثّل شخصيّة رجل الدّين في القرية، ومحاولاته الوقوف في وجه تعليم أطفال القرية وتوعيتهم بحقوقهم، فكانَ "حسن السّعيد" المواجه دائماً لشروره، ما دفعَ سطوة الإقطاع لإبعاده عن القرية، ترحيله إلى مكانٍ بعيد، ما شكّل لديه الدّافع الأكبر في متابعة مهمّته الثّوريّة في تعليم الفتى "إبراهيم العمر" الذي تميّز عن باقي أطفال القرية بالذّكاء والفطنة، وأخذ بيده حتى أكمل تعليمه في حلب وأصبح محامياً لاحقاً، وقادَ حركة الإصلاح الزراعيّ بنفسه، مُشرفاً فيما بعد على توزيع الأراضي لأهالي قريته، مخلّصاً إيّاهم من كلّ ما عانوه من ممارساتٍ إقطاعيّة ظالمة:

"كان الأستاذ حسن السّعيد قد بدأ يتوجّه باهتمامه بشكلٍ خاصّ إلى جيل القرية الجديد في المدرسة، إلى الصّغار الّذين يتوسّم في وجوههم ويتلمّس في كلامهم رجال المستقبل المناضلين في سبيل قضيّة العرب الكبرى، كان قد بدأ ذلك عندما فاجأه قرار بنقله من مدرسة التلّ الأسود إلى إحدى القرى النّائية في محافظة الجزيرة. ومعَ ذلك، وخلال هذه الفترة القصيرة، كان قد بذر البذور، وكسب الأنصار، وعقدَ الصّداقات، فلم تنقطعْ منذ ذلك الحين علاقته بالتلّ الأسود أبداً، إذ كان يعود إليها كلّما سنحت الفرصة لذلك، وخصوصاً أثناء العطلة الصّيفيّة، فيتابع مع أصدقائه الفلّاحين الكبار دعوته، ومع الصّغار تفتيشه عن رجال المستقبل، وحتّى خلال غيبته عن القرية، كان لا يتوقّف وهو في أعماق الجزيرة البعيدة عن استقصاء أخبار التلّ الأسود وأحوال أهلها الأحبّاء إلى قلبه"[16].

كما يمثّل المعلّم محمّد في رواية "التحوّل الكبير" للرّوائي محمّد إبراهيم العلي منبر العلم والمعرفة، في الرّواية الّتي تحدّثت عن الرّيف الشّمالي الشّرقيّ لسورية، لينهضَ بدورٍ كبير في مرافقة مراحل تحضّر البدو وانتقالهم من البادية إلى الحاضرة على طول الرّواية، وتحديداً بعد فيضان سدّ الفرات الكبير الّذي حمل على عاتقه بعده أن يحميَ البدو ويوجّههم ويسعى إلى مساعدتهم وتوطينهم:

"وفيما كانت الشّمس ترتفع في السّماء، كان ذهن المعلّم مشدوداً إلى الوضع المأساوي الّذي تردّت إليه المنطقة.. لماذا عيّنته الدّولة في هذا الرّكن القصيّ؟ الحقيقة أنّهُ كان أمام خيارين، فإمّا أن يعلّم في المنطقة الّتي يسكن فيها أهله وذووه، وإمّا أن يتصدّى للمهمّة الشّاقّة التي فُرِضت عليه من خلال منظّمته، ويخدم في هذه المنطقة، ويعمل على نقل مثل هؤلاء البدو الرُّحّل إلى حياة الاستقرار والحضارة، وهي المهمّة التي رضعَ بذورها منذ حداثة سنّه ونذر نفسه لها، لأنّه لا سبيل لهذا الهدف إلّا بالتّعليم والقضاء على الأمّيّة"[17].

وقد دفعه ذلك لأن يُشير للبدو بعد الفيضان الكبير أن يرحلوا ويبحثوا عن مكانٍ أكثر أماناً لهم ولأرزاقهم، مدركاً صعوبةَ مهمّته أمامَ تمسّك البدو بأراضيهم وأماكن رعيهم، وحرصهم الشّديد على عدم تشتّت العشائر هناك، فحصل على ما يريد بدليل ما جرى على لسان أحد شيوخ العشائر ممّن عارضوا كثيراً المعلّم أحمد في البداية:

---

[16]) – النحوي، أديب، ***متى يعود المطر***، ص 31 – 32.

[17]) – العلي. محمد إبراهيم، ***التحوّل الكبير***، (د،ط)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1987م، ص 49.

"الحمدلله، الحمدلله لقد تطوّرت الدّنيا، تحوّلنا يا ابني من بدو إلى فلّاحين، أولادنا أصبحوا عمّالاً فنيّين، من كان يتوقّع أن تسير الأمور بهذه السّرعة.. أهلا وسهلا.."[18].

3- المثقّف بالخبرة:

من خلال رصد المادّة الروائيّة المدروسة يتجلّى أحد أنماط الشّخصيّات المثقّفة، وهي "الشّخصيّة المثقّفة بالخبرة، فواقع الأمر أنّ المثقّف ليس بالضّرورة خرّيج التعليم العالي، أو الّذي حصل على قسطٍ كافٍ من التّعليم، كما أنّه ليس الفنّي المتخصّص، فقد تكون هذه المحدّدات صالحة للتطبيق في مجتمعات غير مجتمعاتنا العربيّة، وبالتّالي نحن في حاجة تصنيفات أخرى في ضوء رؤية واقعنا العربيّ وظروفه الخاصّة"[19].

وقد جاءت شخصيّة "عثمان" الشّخصيّة الرّئيسة في رواية "المغمورون" مُجسّدة هذا النمط من الشّخصيّات المثقّفة الّتي لم تتلقَّ تعليمها من المدارس ولا الجامعات، على الرّغم من اكتسابها ثقافة عالية هادِفة، "فعثمان" فلّاح بسيط لم يحصل إلّا شهادة التّعليم الابتدائي، لكنّهُ كانَ فلّاحاً مُثقّفاً، اكتسب ثقافته الكبيرة من دأبه على قراءة الكتب، وليس أيّما كتب، كما يفعل مثقّفو عصره ممّن يتباهون بقراءة الكتب المتنوّعة والجرائد والكرّاسات الحزبيّة، من دون أن يفقهوها، بل اعتمد في ثقافته على كتبٍ أخرى رسمت له فيما بعد خطّ العمل الّذي سيعمل به، "كانت كتباً تبحث في التعاونيّات الزّراعيّة والتّحويل الاشتراكي والتّنمية الاقتصاديّة"[20]، ما جعلهُ فلّاحاً ذا وعيٍ في وسطه الفلّاحي البدوي الّذي يعيش فيه، فقد عملَ سائقاً لدى إحدى الجمعيّات التّعاونيّة في العاصمة، وعوضاً عن استغلال وظيفته في الاستفادة منها كما فعلَ الآخرون ، تغلّب أصله الفلّاحي على ضجيج المصالح في المدينة، وكلّ ما من شأنه دفعه إلى الذّوبان في وهج الحضارة بعيداً عن الرّيف وبساطته وقضاياه، وفضّلَ أن يبقى في صفّ الفلّاحين، حيث كان يقول دائماً حينَ يُسأل من قبل رفاقه في المدينة: "أنا رفيق للفلّاحين. الفلّاحين الخشني الأيدي"[21]، فوعيه بأهميّة عمله قد دفعهُ لأن يقومَ بدورٍ فاعل في حياة أهله ومجتمعه من البدو المهدّدين بالغمر جرّاء فيضان نهر الفرات المتكرّر في الجزيرة السّوريّة، فدأبَ على إقناع الأهالي في المنطقة الواطئة الواقعة تحت الغمر بالانتقال إلى القرية النّموذجيّة الّتي بنتها الدّولة لهم من الإسمنت، والّتي كانَ هوَ بحكم عمله يخرج مع أعضاء اللجنة المشرفة على بنائها، حرصاً منه على سلامة البدو والأهالي، وعلى حياةٍ أفضل وأكثر تحضّراً من حياتهم المعيشة:

"في جولاته الماضية، حين كان السّكّان يعبّرون عن تذمّرهم من الانتقال التي ستضطرّهم إليه المياه الغامرة، من قرى تقع في فراش النّهر على قرى جديدة مهيّئة لهم على كتف ذلك الفراش في ضفة البحيرة. حين كانوا يعبّرون عن ذلك التّذمّر، كان عثمان يردّ عليهم من موقع المتمكّن المطّلع المقتنع، كان يشرح لهم بطلاقة الفرق بين بيوتهم الطّينيّة القميئة وبين المنازل الجديدة الي صُمِّمت لراحتهم وصحّتهم"[22].

لقد جاءت شخصيّة "عثمان" معبّرة عن شرط الرّواية الرّئيس وهدفها الأساس الّتي قامت عليه، وهوَ ارتباط الوعي الفلّاحي بالمُمارسة الفاعلة، والإيمان بالعمل من أجل الجماعة، فالثّقافة الّتي اكتسبها كانت ذات تأثير فاعلٍ وكبير في شخصيّته أوّلاً، وفي مجتمعه الرّيفي ثانياً.

---

[18] – المصدر نفسه، ص 253.

[19] – ينظر: حجازي. أحمد، *المثقف العربي والالتزام الإيديولوجي*، مجلة الوحدة، العدد (40)، 1988م، ص 23

[20] العجيلي. عبد السلام، *المغمورون*، دار الشرق الأوسط للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1979م، ص 41-42.

[21] – العجيلي. عبد السلام، *المغمورون*، ص 34.

[22] – المصدر نفسه، ص 128 – 129.

4- المثقّف اللامنتمي:

قدّمت الرّواية السّوريّة المدروسة نماذَج لشخصيّاتٍ مثقفة مرّت بتحوّلاتٍ عدّة، وكان المسبّب والمؤثّر الأكبر في ذلك هي بيئة الرّيف وتنشئتها لها، ما تعارض مع قيمها وأفكارها المنفتحة، وإرادتها في التّغيير.

وقد بلغت هذه الشّخصيّة مرحلة اللاانتماء بسبب شعورها بالظّلم الاجتماعيّ، أو بفضل رغبتها في التّغيير، ورفض ذلك الواقع الاجتماعيّ الّذي تعيشُ فيه، وعدم فهم من حولها لها لما تريد، ما أدّى إلى ضياعها بينَ قديمٍ محافظ وجديدٍ مُنفتح، فكان لانتمائها نوع من الاحتجاج على سيادةِ الجهل، وقيد العادات والتّقاليد في المجتمع الريفيّ الّذي نشأت فيه.

فالفتى الريفي البسيط "إبراهيم العمر" بطل رواية "مفترق المطر"، قد تفتّحت عيناه على حبّ الأرض والامتزاج بترابها منذ نعومة أظفاره، وحتّى قبل دخوله المدرسة، وتتلمُذهِ على يديّ الأستاذ "حسن السّعيد" الّذي وقفَ بدوره في وجه محاولات الإقطاع الإبقاء على جهل الفلّاحين، لاستمرار فرض سطوته واستغلاله.

وبعد أن تحدّى "إبراهيم" جميع المحاولات السّابقة لمنعه من إكمال تعليمه، استطاعَ أن يدخل الجامعة، ويصبحَ محامياً ناجحاً فيها، متحدّياً الإقطاعي "رضوان بك" يومَ نجاحه في الثّانوية، بعدَ أن وجَّه له الأخير صفعةً على وجهه حين قام بالاعتراض على مصير الفلّاحين الّذينَ حُكِمَ عليهم أن يُولدَوا ويموتوا محرومين.

ولكن بعدها، استطاعت المدينة بأضوائها الباهرة، وضجيج الحياة والشّهرة فيها أن تشغله عن أهله، وعن أصالتهِ الرّيفيّة، منقطعاً عن الأهل والنّاس الّذين لطالما وقفوا إلى جانبه بكلّ ما أوتوا من حيلة، ليُكملَ تعليمه ويكونَ هوَ أملهم الواعي المُثقّف:

"كانَ إبراهيم قد أصبح محامياً ناجحاً ومعروفاً في حلب، وانفتح أمامه طريقُ الشهرة، فانقطع عن أهله، ولم يعُدْ يزورُ القرية أو يهتمّ بمشاكلها.. إلّا نادراً.."[23].

إنّ الملاحظ أنّ "إبراهيم" بابتعاده عن القرية وأهله كان يلتمس علماً وشهرة، من دون أن ينسلخ عن واقعه، إيماناً منه برسالتي العلم والعمل الكفيلتين بوضع حدٍّ لجهل الجاهلين من جهة، ولاستغلال المستغلّين ورثة العثمانيّين من جهةٍ ثانية.

ولكن، ما حدث بعد إحدى زيارات الفتى المثقّف للقرية، ولقائهِ مصادفة بالإقطاعي "رضوان بك" والشّيخ "أحمد العيسى" الّذي لطالما حاول مسحَ عقول الفلّاحين والسّيطرة على أذهانهم في موضوع انحباس المطر عنهم، بسبب ما اقترفوه والإصلاح الزراعي من ذنوب باسترجاع الأراضي من صديقهِ الحميم "رضوان بك" الّذي – على حدّ زعم الشّيخ ودفاعه عنه – أنّهُ قد ورثها عن أجدادهِ العثمانيّين، جاءت الصّدمة الكبرى من خلالِ موقف أهالي القرية، ووقوفهم في وجه الفتى المتعلّم "إبراهيم" حين أصبحَ كثر وعياً ونُضجاً، وحينَ تمرّدَ – على حدّ زعمهم– على الكبار ورجال الدّين، وقامَ برفضِ ما يُمارسهُ الشّيخ عمداً بحقّ أهالي القرية الّذين وضعوا آمالهم به، ولكنّهم لم يتقبّلوا كيف وقفَ في مواجهة الشّيخ بقوّة وعنفوان، وللمرّة الأولى، حين توجّهَ إلى "الشّيخ أحمد" باندفاعٍ وغضب، بعد أن أخرجته حججهُ الواهية عن هدوئهِ المعهود، صارخاً في وجهه:

– أنت تكذب على الفلّاحين أنت ومعلّمك الغريب، إنَّ انقطاعَ المطر لا يُمكن أن يكونَ لهذا السّبب أبداً.

وبُهتَ أبناءُ عمّه جميعاً، فهم لم يتعوّدوا من إبراهيم مثل هذا التهجّم بالكلام على الشّيخ أحمد..، كانوا يرضون بكلّ ما يمكن أن يُقال عن رضوان الغريب، أمّا عن الشّيخ أحمد فالأمر مختلف بالنّسبة إليهم..

[23]) – النحوي. أديب، ***متى يعود المطر***، ص 62.

لذلك كانَ إبراهيم في جميع أيّامه السّابقة يُقارع الشّيخ أحمد الحجّة بالحجّة، دونَ أن يرضى بأن يستعيضَ عنِ المنطق والإقناع بالإهانة والشّتيمة"[24].

ويكشف العمل الروائيّ عن موقف أهل القرية المعبّر عن إذعانهم وتسليمهم بالشّخصيّة الدّينيّة، فيما تقولُ وتفعل، لذا لم يرتضِ الفلّاحون أن يرفعَ إبراهيم صوتهُ على الشّيخ أحمد، وقد ساءَهُم ذلك، على الرّغم من أنّه هو بطل القرية المُطالب بحقوقها، وهو أملهُم في استعادة ما تبقّى من حقوقهم. ويُعدّ هذا الموقف الجماعي لأهل القرية في مواجهته، خرج "إبراهيم" منَ المضافة مُطرقاً، متوجّهاً إلى حلب، منقطعاً بعدها عن قريته التي أحبّ بفضل ما حدث:

"أنا عائد إلى حلب، دعني وحدي يا حسن، أسيرُ في هذا التّراب اليابس من هنا حتّى حلب، مشياً على الأقدام، في صمت هذا الليل الحزين. لقد بدأت أصالتي تضيع في المدينة بعد أن ابتعدتُ عنكُم هذه الأيّام الطّويلة، لم أعُد أعرف كيف أخاطبكُم وأقنعكم بما أريده من الحقّ والصدق، لم يبقَ لي شيء من خصب أرضِنا الطّيّبة في الماضي، لقد أصبحت مثلها اليوم، عطشان، أنتظر المطر"[25].

ومن المعروف لدى تناول الرّواية هذا النّمط من الشّخصيّات، – وعلى وجه التّحديد الرّواية السّوريّة عبر مسيرتها – أنّها قامت بإدانة الشّخصيّات المثقّفة اللامنتمية، "فقد أدانَ الرّوائيّونَ الشّخصيّات المثقّفة اللامنتمية، وجعلوا نهاياتها مأساويّة، فهذهِ الشّخصيّات –كما تبدّت في الرّواية السّوريّة–" إمّا أن تُهاجِر إلى خارج الوطن أو تتحوّل على شخصيّات انتهازيّة أو تنتحر"[26].

وقد صوّرت بعض الرّوايات الوجه المعاكس لهذهِ الشّخصيّة، فجعلت من الظّلم الواقع على الرّيف دافعاً لها على التحوّل والعودة من جديد إلى أصالتِها، ورفض الانسلاخ عن مجتمعها، مُراهنةً الرّواية بذلك على غلبة الأصالة والنّشأة المتجذّرة في دواخل هذا النّموذج من الشّخصيّات الرّيفيّة على كلّ مُغريات الحياة وأسبابها القويّة التي كانَ من شأنها أن تحرِف مسارها إلى عوالمَ بعيدة أخرى، عوالم جديدة بعيدة كلّ البعد عن البيئة الريفيّة البسيطة الّتي تخلو من كلّ ما هو لامع وبرّاق، فإمّا الانسلاخ عنها أو الضّياع إلى غير رجعة.

لقد دفعت الحادثة الّتي حدثت بين "إبراهيم العُمر" و"الشّيخ أحمد وأهالي القرية" لِلعودة إلى القرية بقوةٍ يستطيع أن يجاري بها الإقطاع وأزلامه، ويُثبت لأهالي قريته أنّه على حقّ، وعلى وعي بمحاولات الإقطاع الإبقاء على جهلهم، ولو حتّى باستخدام سطوة الدّين وأثره في عقولهم البسيطة الطّيّبة، فقد عاد "إبراهيم" على رأس لجنةٍ من الإصلاح الزّراعي قد جلبت معها الأدوات اللازمة لحفر الآبار الكافية لريّ الرّيف بعد طول انقطاع المطر، وليدحض مزاعم الإقطاع ورجال الدّين في أنّ هذا الانحباس سببه الذّنوب الّتي ارتكبها هؤلاء البسطاء بحقّ أراضي الإقطاع:

"الآن سترونَ الجواب الحقيقيّ على كلام الشّيخ أحمد العيسى...

لو ظفرت وأنا أحفر البئر بهذا المِعوَل على يُبوسةِ هذهِ الأرض واستخرجتُ منها الماء.. إذن لعرفت منذُ ذلكَ اليوم أنّ الحفر في الأرض هو الجواب الحقيقيّ على احتجاب المطر في السّماء.. أجل، إذا كان لاحتجاب المطر من سبب.. أفلا يكفيه ليحتجب أنّهُ قد مَلأ منذُ ألفِ سنة أعماقَ أرضنا الماء، ونحنُ لا نفعل شيئاً لتفجيرها، بحفر الآبارِ في كُلِّ مكان، ونحنُ لا نفعلُ شيئاً سِوى أن نرفعَ أيدينَا بالدّعاء، منتظرين أن يأتيَنا كلُّ شيءٍ من السّماء، بدونِ عمل..

---

[24] – **النحوي. أديب، *متى يعود المطر* ، ص 62–63.**

[25] – **المصدر نفسه، ص 65.**

[26] – **وتّار. محمد رياض، *شخصيّة المثقف في الرواية العربية السورية*، ص 131.**

لقد أصبحت الأرض ملككم منذ اليوم، فليحمل كلٌّ منكم معوله ويمضي إلى أرضه ليحفرَ فيها بئراً، فهذا هو الجواب الحقيقي على انقطاع المطر، استخرجوا الماء من الأرض تتحرّر أرضكم من شبح المَحل الرّهيب، املؤوا حقولكم بالآبار وسيعطيكم الإصلاح الزراعيّ الآلات اللازمة لضخّ الماء ستزرع أرض التلّ الأسود كلّها.."[27].

لقد أثبت هذا النّموذج نضج الرّواية السّوريّة فنّيّاً، وقدرتها على خلق شخصيّاتٍ قادرة على الفعل الإنسانيّ الواعي والقادر على الانتفاض والنّهوض من الضّعف، وخلق ردّ فعلٍ بنّاء وفعّال في مواجه الواقع الصّعب الّذي عاشه المجتمع السّوريّ آنذاك.

الاستنتاجات والتّوصيات:

لقد أدّت الشّخصيّة المثقّفة دوراً مهمّاً في توسيع أفق الرّواية السّوريّة، وعلى وجه التّحديد الرّواية الّتي تناولت الرّيف في النّصف الثّاني من القرن العشرين، وذلكَ تبعاً لعوامل عدّة أدّت لنتائج مهمّة توصّلَ إليها البحث، وتتلخّص بالآتي:

1- إنّ أهمّ ما يمكن ملاحظته وتسجيله أنّ الرّواية الواقعيّة السّوريّة، - وعلى وجه التّحديد الرّواية التي تناولت الرّيف السّوريّ في النّصف الثّاني من القرن العشرين - استطاعت أن تنوّع في تناولها الشّخصيّة المثقّفة، في فترةٍ كانت قد خرجت منها من ظلال الرومانسيّة إلى مرحلةٍ جديدة من حياة البلاد على الأصعدة السّياسيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة، ما تطلّب جرأةً في الطّرح، لذا أنطق الرّوائيّون الشّخصيّات المثقّفة ما يريدون قوله، فجاءت المعبّر عمّا يجول في فكرهم من رصدٍ للواقع المَعيش في ظلّ كلّ تلك التحوّلات للمجتمع السّوريّ في الفترة المدروسة، وما كان عليه قبل ذلك.

2- تناولت الرّوايات السّوريّة المدروسة نماذج مختلفة من الشّخصيّات المثقّفة تبعاً لموقفها الأيديولوجيّ؛ من شخصيّات تراثيّة، وشخصيّاتٍ ثوريّة، وشخصيّاتٍ مثقّفة لا منتمية، وأدّى هذا التناول لرصد الصّراع بين طبقات المجتمع المُستغِلّة والمُستغلَّة، والتّركيز على نضال الأخيرة في وجه الأولى، ورصد انتصار الشّخصيّة المثقّفة في قضيّتها النّبيلة، مقابل تصوير الشّخصيّة المثقّفة السّلبيّة التي لم تحفل بها الرّواية السّوريّة في الفترة المدروسة.

3 - وجود نمطين من أنماط الشّخصيّة المثقّفة التّراثيّة؛ الأوّل هو النّمط المتمسّك بالتّراث، الّذي أخذ على عاتقه توظيف التّراث من أجل خدمة المجتمع الرّيفيّ وتطوّره.

أمّا النّمط الآخر هو النّمط المتستّر بالتّراث، وقد ظهرَ من خلال الرّوايات المدروسة نموذجاً انتهازيّاً يسخّر التّراث الدّيني لخدمة مصالحه وأطماعه البرجوازيّة، من خلال ما قدّمهُ من شخصيّةٍ سلبيّة عبر معظم الأعمال الروائية الّتي تناولت ذلك النّمط في تلك الفترة.

4- ظهرت الرّواية العربيّة السّوريّة بمظهرٍ وضّاء مُشرق، من خلال ما قدّمته عبر الشّخصيّة المثقّفة من قضايا واقعيّة اخترقت الجدار الرّومانسي وأصبحت أكثر نضجاً فنّيّاً، ما جعلَ الشّخصيّة الرّوائيّة المدروسة تتقدّم قفزاتٍ نوعية على طريق الرّواية الواقعيّة.

[27] – النحوي. أديب، *متى يعود المطر*، ص 75-76.

المصادر والمراجع العربيّة والأجنبية:

1- حجازي. أحمد، ***المثقّف العربي والالتزام الإيديولوجي***، مجلّة الوحدة، 1988م، العدد (40).

1- Hijazi. Ahmed, ***The Arab Intellectual and Ideological Commitment***, Al-Wahda Magazine,1988, Issue (40).

2- حيمر. عبد السّلام، ***في سوسيولوجيا الثّقافة والمثقّفين - من سوسيولوجيا التمثّلات إلى سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي، ومن منطق العقل إلى منطق الجسد (أو التّطبّع)***، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 2009م.

2- Hemer. Abdel Salam, ***in the sociology of culture and intellectuals - from the sociology of representations to the sociology of social action, and from the logic of the mind to the logic of the body (or imprinting***), first edition, Arab Network for Research and Publishing, Beirut, Lebanon, 2009.

3- الدقّاق، د. عمر، فنون الأدب المعاصر في سورية، (دـط)، دار الشّرق العربي، بيروت، شارع سورية، (د،ت).

3- Al-Daqqaq, Dr. Omar, ***Contemporary Literary Arts in Syria***, (n.d.), Dar Al-Sharq Al-Arabi, Beirut, Syria Street, (n.d.)،

4- زهران. جمالي علي، ***تأثير الأوضاع المجتمعيّة على دور المثقّف العربي***، مجلّة الوحدة، 1988م، العدد /40/.

4- Zahran. Jamali Ali, ***The Impact of Societal Conditions on the role of the Arab intellectual***, Al-Wahda Magazine, 1988, Issue 40.

5- سارتر. جان بول، ***دفاع عن المثقّفين***، الطّبعة الأولى، ترجمة: جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، 1973م.

5- Sartre. Jean-Paul, ***Defense of Intellectuals***, first edition, translated by: George Tarabishi, Dar Al-Adab Publications, Beirut, 1973.

6- سعيد. إدوارد، ***المثقّف والسّلطة***، الطّبعة الأولى، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2006م.

6- Said. Edward, ***The Intellectual and Authority***, by: Muhammad Anani, Vision for Publishing and Distribution, Cairo, 2006.

7- الشّاذلي. عبد السّلام محمّد، ***شخصيّة المثقّف في الرّواية العربيّة الحديثة***، دار الحداثة، بيروت، لبنان، (دـط)، 1985م.

7- Al-Shazly. Abdel Salam Muhammad, ***The Character of the Intellectual in the Modern Arabic Novel***, Dar Al-Hudaida, Beirut, Lebanon, 1985.

8- شرابي. هشام، ***المثقّفون العرب والغرب***، دار النّهار، بيروت، لبنان، (دـط)، 1971م.

8- Sharabi. Hisham, ***Arab Intellectuals and the West***, Dar Al-Nahar, Beirut, Lebanon, 1971.

9- عبد الله، د. محمد حسن، ***الرّيف في الرّواية العربيّة***، مجلّة المعرفة، العدد /143/، الكويت، 1993م.

9- Abdullah, Dr. Muhammad Hassan, ***The Countryside in the Arabic Novel***, Al-Ma'rifah Magazine, Issue No. 143, Kuwait, 1993AD

10- العجيلي. عبد السّلام، ***المغمورون***، دار الشّرق الأوسط للنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1979م.

10- Al-Ajili. Abdel Salam, ***Al-Maghmuroon***, Dar Al-Sharq Al-Awsat for Publishing and Distribution, Beirut, Lebanon, 1979.

11- عصفور. جابر، ***مواجهة الإرهاب (قراءات في الأدب العربيّ المعاصر)***، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 2003م.

11- Osfour. Jaber, (2003), ***Confronting Terrorism (Readings in Contemporary Arabic Literature)***, Dar Al-Farabi, Beirut, Lebanon.

12- العلي. محمد إبراهيم، ***التحوّل الكبير***، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، (د،ط)، 1978م.

12- Alali. Muhammad Ibrahim, ***The Great Transformation***, Arab Writers Union Publications, Damascu, 1978.

13- النّحوي. أديب، ***متى يعود المطر***، الأعمال الكاملة (الرّوايات)، إعداد وتحرير وتقديم: نضال الصّالح، المجلّد الثاني، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، 2003م، المجلّد الثاني.

13- Alnahwy. Adeeb, (2003), ***When Will the Rain Return***, Complete Works (Novels), prepared, edited and presented by Dr. Nidal Al-Saleh, Volume Two, Publications of the Ministry of Culture, Damascus.

14- وتّار. محمد رياض، ***شخصيّة المثقّف في الرّواية العربيّة السّوريّة***، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سورية، (د،ط)، 2000م.

14- Wattar. Muhammad Riyad, ***The Character of the Intellectual in the Syrian Arabic Novel***, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, Syria, 2000.